﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [التَّوبة: 70]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقة بين تشبيه المنافقين ومن سبقهم، بذكر نماذج ستّة منهم

لَمَّا شبَّه اللّهُ تعالى المنافقينَ بالكُفّارِ المُتقدِّمينَ في الرَّغبةِ في الدُّنيا، وفي تكذيبِ الأنبياءِ، والمبالغةِ في إيذائهم، وكان في لفظ ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ إبهامٌ، بيَّنَ في هذه الآيةِ الكريمةِ أولئكَ الكفّارَ المتقدِّمين بذكرِ هؤلاءِ الطَّوائفَ السِّتَّة في هذه الآية.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَبَأُ﴾: النَّبأ: خبرٌ ذو فائدة، عظيمٌ يحصل به علمٌ أو غلبة ظنٍّ، ولا يُقالُ للخبر في الأصل (نبأ) حتى يتضمَّن هذه الأشياء الثلاثة، وحقُّ الخبر الَّذي يُقال فيه (نبأ) أن يتعرَّى عن الكذب كالتَّواتر، وخبر الله تعالى، وخبر نبيه ﷺ، ولتضمُّن النَّبأ معنى الخبر، يُقال: أنبأته بكذا، كقولك: أخبرتُه بكذا، ولتضمُّنه معنى العِلم: أنبأته بكذا[1].

2) ﴿وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ﴾: مَدْيَنُ: اسْمُ قريةِ نبيِّ اللّهِ شُعَيْبٍ عليه السلام وأصحابُ مَدْيَن: هم قومُ شُعَيب عليه السلام فإضافةُ (أصحاب) إلى (مَدْيَنَ) باعْتبارِ إطلاقِ اسْمِ (مَدْيَنَ) على الأرضِ الَّتي كان يقطنُها بنو مَدْيَن، فكما أنَّ (مَدْيَن) اسْمٌ للقبيلةِ كما في قولِه تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: 85]، كذلكَ هو اسْمٌ لموطنِ تلكَ القبيلة[2].

(1) الرّاغب، المفردات: (نبأ).

(2) الرّازيّ، مختار الصِّحاح: (مدن)، والزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/201، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/261.

3) ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ﴾: الإفْكُ: كلُّ مصروفٍ عن وَجْهِه الَّذي يَحقُّ أنْ يكونَ عليه، ومنه قيل للرّياحِ العادلةِ عن المَهابِّ: مُؤتَفِكَة، قالَ تعالى: ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ ۝٥٣﴾ [النّجم: 53] وقالَ ﷻ: ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ بِٱلۡخَاطِئَةِ ۝٩﴾ [الحاقّة: 9]، ومنه الإفكُ الَّذي اسْتُعمِل في أشدِّ الكَذِبِ، كما قالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٌ مِّنكُمۡۚ﴾ [النّور: 11][1]. وقولُه في الآية: ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ﴾ مدائنُ وقُرَى قومِ لوطٍ عليه السلام وقد كانوا يَسكنونَ في مدائن، وفي آيةٍ أُخرى: ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ ۝٥٣﴾ [النّجم: 53] أي: الأمَّةَ المؤتَفكةَ وهي سَدوم، أهلَكهمُ اللّهُ بأنْ قَلَبَ عاليَ أرضِهم سافلَها[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

ذكر طوائف من الكفّار الهالكين، وظلمهم أنفسهم، بتكذيب المرسلين

يقولُ اللّهُ تعالى واعظًا هؤلاءِ المنافقينَ المكذِّبينَ للرُّسُل في هذه الآية: أَلَمْ تُخبَروا خبرَ مَنْ كانَ قبلَكم من الأُمَم المكَذِّبةِ للرُّسلِ: ﴿قَوۡمِ نُوحٖ﴾ وما أصابَهم من الغرَق العامِّ لجميعِ أهلِ الأرضِ إلّا مَنْ آمنَ بعبدِه ورسولِه نوحٍ عليه السلام، وعادٍ كيفَ أُهلكوا بالرّيحِ العقيم لمّا كذَّبوا هودًا عليه السلام، وثمودَ كيف أخذتْهُمُ الصَّيحةُ لمّا كذَّبوا نبيَّهم صالحًا عليه السلام وعَقَروا النّاقة، وقومِ إبراهيمَ كيف نصَرَه اللّهُ عليهم، وأيَّدَه بالمعجزاتِ الظّاهرةِ وأَهْلكَ مَلِكَهم نمرودَ بنَ كنعانَ بن كُوش الكنعانيّ - لعنَه الله -، وأصحابِ مَدْيَنَ وهم قومُ شُعَيبٍ عليه السلام وكيفَ أصابتْهمُ الرَّجفةُ وعذابُ يوم الظُّلَّة، والمؤتفكاتِ قومِ لوطٍ، وقد كانوا يسكنونَ في مدائن، وكيف أَهلَكهمُ اللّهُ عن آخرِهم بتكذيبِ نبيِّهم وإتيانِهمُ الفاحشةَ الَّتي لم يسبقْهم إليها أحدٌ من العالمين، أَتَتْهُم رُسلُهم بالحُجَج والدَّلائلِ القاطعات، فما كانَ اللّهُ ليظلِمهمْ بإهلاكِه إيّاهم؛ لأنَّه أقامَ عليهمُ الحُجَّةَ بإرسالِ الرُّسُلِ وإزاحةِ العِلَل، ولكنَّهم

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 79.

(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/201، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/99.

ظلموا أنفُسَهم بتكذيبِهمُ الرُّسُلَ، ومُخالفتِهمُ الحقَّ، فصاروا إلى ما صاروا إليه من العذابِ والدَّمار[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ فضلِ هذه الآية عمّا قبلها:

فُصِلتْ هذه الآيةُ عمَّا قبلها؛ لأنَّها استئناف ابتدائيٌّ عاد الكلام فيه على المنافقين؛ فضمير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ عائدان إلى المنافقين الَّذين عاد عليهم الضَّمير في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾.

تقريرُ خسارةِ المنافقين والكافرين، ومَنْ على شاكلتهم في كلّ حين

بلاغةُ الاستفهامِ في صدرِ الآية الكريمة.

صُدِّرتِ الآيةُ بالاستفهامِ في قولِه تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ﴾ لمَنْ نزَلَتْ فيهم الآياتُ من الكفَّار والمنافقين تحذيرًا لهم، بحيثُ يكونُ كالاستشهادِ عليهم بأنَّهم أتاهم نبأُ الَّذين من قبلِهم، فلا مناصَ لهم في عَدَمِ العِظَةِ والاعْتبار[2]، وفي هذا دليلٌ على تأكيدِ الخبر.

إقامةُ الحُجَّةِ على المخاطَبين، بتلقّيهم البلاغ المبين

نكتةُ الالتفاتِ من ضمائرِ الخطابِ، إلى ضمائرِ الغَيْبةِ:

تحوَّلتِ الضَّمائرُ في هذه الآيةِ إلى الغَيْبَةِ بعد أنْ كانتْ في صدرِ الآيةِ السّابقةِ للخطاب؛ إذِ اكْتُفِيَ بالإشارةِ لما مضَى من حالِ تلكَ الأمم فيما حلَّ بها من العذابِ والعقابِ والاستئصالِ، وعَوْدُ الكلامِ على المنافقينَ في قولِه: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ﴾، و﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ بالغيبة، ومجيئُها على الغَيْبةِ مع ذكرِ عذابِ اسْتئصالِ تلكَ الأقوامِ المحادَّةِ المكذِّبةِ للّهِ ولرسُله، تعبيرٌ عن ازْدرائهم وقلَّةِ شأنِهم عند اللّهِ تعالى، وكذلكَ هو حالُ المنافقينَ المتَّبعينَ لهم، ليس لهم عندَ اللّهِ تعالى شأنٌ، وهُم أَجْدَرُ بالاستهانةِ والازْدراءِ والتَّبكيت[3].

ازدراءُ المنافقينَ والاستهانةُ بهم، بذكرِ اتّباعهم للهالكين

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/336، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 2/540 - 541.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/540، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/260.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/260.

بلاغةُ الاستعارةِ في تشبيهِ، بلوغِ النَّبأِ بإتْيانِه:

حـصـولُ الـنَّـبـأِ ووقوعُه بعدَ أنْ لـم يـكـن، من بليغ البيان

الإتْيانُ هنا مُستعملٌ في بلوغِ الخير؛ كقولِه تعالى: ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾ [المائدة: 41]، وهو استعارةٌ؛ فقد شُبِّه حصولُ الخيرِ عند المُخبَرِ بإتيانِ الشَّخص، بجامعِ الحصولِ بعدَ عَدمِه، ومن هذا القبيلِ قولُهم: (بَلَغَه الخبرُ)، قالَ تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ [الأنعام: 19][1].

بلاغة المَجاز العقليّ في إسناد (الإتيان)، إلى (النَّبأ):

تـفـخـيـم شـأن مـا حـلّ بتلك الأقـــوام، من هلاك وآلام

"إسناد الإتيان إلى النَّبأ في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مجاز عقليٌّ؛ لأنَّ النَّبأ طريقه السَّماع والرِّواية النَّاقلة، وعلاقته المفعوليَّة. وسرُّه البلاغيُّ تعظيم وتفخيم شأنِ ما حلَّ بتلك الأقوام حتَّى لكأنَّه يسعى بنفسه لِيَرْوِيَ حكايتَه لهم"[2].

نكتة التّعبير بـ(الإتيان)، دون غيره من الألفاظ:

أمـرُ الإنـبـاء عن الأمـم السَّابقة يسيرٌ، وخاصّة إذا كان وحيا من العليم القدير

آثَرَ القرآن الكريم التّعبير بـ(الإتيان) دون غيره في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ﴾؛ للإشارة إلى سهولة الإنباء عمّا حدث للأمم السَّابقة مع امتداد الزَّمان وتعدُّد المكان، وفي هذا ردٌّ على مَنْ يستبعد أمر الإنباء لصعوبة حصوله.

سرُّ التّعبير بـ(النَّبأ) دون (الخبر):

هـــلاك الأمـــم الـسَّـابـقـة، يـحـمـل معنىً عـظـيـمًـا، لـم يدركه الكافرون والمنافقون

آثَرَ التّعبير بـ(النَّبأ) دون (الخبر)، في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ لأنَّه يحمل معنىً عظيمًا في هلاك الأمم السَّابقة لم يطّلع عليه الكافرون والمنافقون في عهده ﷺ إلا من خلال إخبار القرآن عن أحوال هذه الأمم مع رسلهم؛ لذلك كان التَّعبير بالنَّبأ هو المناسب للسِّياق.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/260.
(2) المطعنيّ، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/22.

وجه إضافة (النّبأ) إلى الموصول الظّاهر دون المُضمَر:

جاء التّعبير بقوله تعالى: ﴿نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ دون (نبئهم)؛ ليشمل ما فعلوه وما فُعل بهم؛ فهم فعلوا التّكذيب وفُعل بهم الهلاك[1]. والإضافة للاختصاص، أي: النَّبأ الخاصّ بهم[2].

هلاك السّابقين، لكونهم كذَّبوا، فأتاهم العذاب من حيث لم يحتسبوا

نكتةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

جاءَ التَّعبير بالاسم الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ للمُبالغة في وصفِ شأنِ المُتقدِّمين وتأكيدِ تَنبئِهم فيما فعلوه من المنكراتِ واعْتقادِ الكُفْرِ باللّهِ ورسُلِه، وما حلَّ بهم من العذاب والهلاك[3]، وهذا المعنى لا يتأتَّى من غير استعمال اسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾؛ ففيه إثباتُ النَّبأ إلى مَنْ قبلهم؛ زيادةً في تقرير ذمّهم.

المبالغةُ والتَّأكيدُ في نبأ المتقدِّمين، من البيان المبين

معنَى ﴿مِن﴾، في قولِه ﴿مِن قَبۡلِهِمۡ﴾:

﴿مِن﴾ في قولِه تعالى: ﴿مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ تفسيريَّةٌ بيانيَّة، أفادتْ بيانَ حالِ الأقوامِ السّابقينَ مع أنبيائهم، في تكذيبِ دعوتِهم وإيذائِهم لهم، وما أصابَهم من العذابِ الوَبيلِ واسْتئصالِ شَأْفَتِهم. ويجوز أن تكون ابتدائيَّة، ويكون المعنى: ألم يأتهم نبأ الَّذين من قبلهم ليشمل الحديث بأحوال بني إسرائيل وما حدث لبعضهم من مسْخٍ ورفع الجبل فوقهم، ونحو ذلك مِمَّا أصابهم من العقاب، وإنْ كان ليس استئصالًا كما كان مع الأمم المذكورة في الآية.

بيانُ حال الأقوام السَّابقة، وما حدث لهم، للعبرة والادّكار

موقعُ قولِه: ﴿قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ﴾ ممَّا تقدَّمها:

جملةُ ﴿قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ﴾ اعتراضيَّةٌ فصَّلتْ ذكرَ إجمال الأقوامِ السّابقين بين الاسْتفهامِ الَّذي صُدِّرت به الآيةُ ﴿أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ﴾

من مظاهر البيانِ التَّفصيلُ بعد الإجمال

(1) الجمل، حاشية الجمل: 2/298.
(2) المطعنيّ، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/22.
(3) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 2/540 - 541.

وجملةِ: ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ الَّتي عادَ الضَّميرُ فيها (هُم) على هذه الأُمَم المذكورة.

وجميع مَنْ ذُكر في قوله تعالى: ﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ في موقعِ البَدَلِ من قوله: ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾[1] بدل بعضٍ من كلٍّ؛ فقوله تعالى: ﴿وَعَادٍ﴾ إلى آخره معطوفات كلُّها على ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ لا على ﴿نُوحٍ﴾ إلا ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ﴾ فهي على حذف مضاف؛ لأنَّها ليست من الَّذين خلوا حتى تكون من جملة البدل[2].

نكتةُ حذفِ ﴿قَوْمِ﴾، مع ﴿وَعَادٍ﴾ و﴿وَثَمُودَ﴾:

تـقـدّمُ الـذِّكـر أغـنـى عـن الإعـادة، وأجـزأ عن الإطناب

حُذِفَ لفظُ ﴿قَوْمِ﴾ مع عادٍ وثمود؛ لأنَّه لَمّا ذُكِر قومُ نوحٍ ﷺ من قبلُ أغنَى ذلكَ عن إعادةِ ذِكْره مع ما عُطِفَ عليه، فَفُهِم من السّياق أنَّ المُرادَ: قومُ نوحٍ وقومُ عادٍ وقومُ ثمود.

فائدةُ إضافةِ كلمةِ ﴿وَأَصْحَٰبِ﴾ إلى ﴿مَدْيَنَ﴾ دونَ غيرِها:

(مَـدْيَـنُ) هي الأرضُ الَّـتـي كان يَقطنُها بنو مَدْيَن

إضافةُ ﴿وَأَصْحَٰبِ﴾ إلى ﴿مَدْيَنَ﴾ باعْتبارِ إطلاقِ اسْمِ مَدْيَنَ على الأرضِ الَّتي كان يَقْطُنُها بنو مَدْين، فكما أنَّ مَدْيَنَ اسْمٌ للقبيلة، كما في قولِه تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: 85] كذلك هو اسْمٌ لموطنِ تلكَ القبيلة[3]. مَدْيَنُ: اسْمُ قريةِ نبيِّ اللهِ شُعَيْبٍ ﷺ . وأصحابُ مَدْيَن: هم قومُ شُعَيب ﷺ فإضافةُ (أصحابِ) إلى (مَدْيَنَ) باعْتبارِ إطلاقِ اسْمِ مَدْيَنَ على الأرضِ الَّتي كان يقطنُها بنو مَدْيَن، فكما أنَّ مَدْيَن اسْمٌ للقبيلةِ كما في قولِه تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: 85]، كذلكَ هو اسْمٌ لموطنِ تلكَ القبيلة[4].

(1) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 3/58، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/540.
(2) حاشية الجمل: 2/298.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/261.
(4) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (مدن)، والزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/201، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/261.

معنَى (أل) للتّعريف والعهد، في لفظ ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ﴾:

بيان نبأ القُرى الّتي خُسِفَ بها للتّذكير، لأنّه معروفٌ مشهورٌ

(أل) في قولِه: ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ﴾ للتَّعريفِ والعهدِ بتلكَ القُرَى الَّتي انقلبتْ على أهلِها حيث خُسِفَ بها وصارَ عاليَها سافلَها، ونبأُ هؤلاءِ معروفٌ مشهورٌ، وهو خبرُ هلاكِهم واسْتئصالِهم بحوادثَ مَهولة[1].

نكتةُ ذكرِ ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ﴾:

قُرَى قومِ لوط ﷺ هي الّتي انقلبتْ رأسًا على عَقِب

اكْتفَى بيانُ اللهِ بذِكْرِ ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ﴾ دون ذِكْر (أصحاب) أو (قوم) كما تقدَّمَ في ﴿قَوۡمِ نُوحٖ﴾ و﴿وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ﴾؛ لأنَّ المرادَ: القُرى نفسُها الَّتي انقلبتْ على أهلِها فاستأصلَ اللهُ شأفتَهم بذاك الانْقلابِ بجعلِ عاليَ أرضِ تلك القُرى سافلَها، وذلك بسببِ إعراضِهم عن صيانةِ أعراضِهم في اتِّباع لذائذِ أغراضهم، فأَثْمَر لهم فعلُهم بعدَ الخَسْفِ عمومَ انْقراضِهم[2]. ويجوز أن يكون المُراد: قرى المكذِّبين المُتمرِّدين مطلقًا، ويكون الائتفاك من باب المَجاز، والمُراد: انقلاب حالها من الخير إلى الشَّرِّ على طريق الاستعارة[3].

فائدة التَّرتيب في ذكرِ الأقوامِ السّابقة:

ترتيبُ ذِكْرِ الأقوامِ بناءً على التَّرتيبِ الزَّمنيّ، مراعاةً لأحوالهم وظروفهم

جاءَ ترتيبُ ذكرِ الأقوامِ السّابقة – قومِ نوحٍ، وعادٍ، وثمودَ، وقومِ إبراهيمَ، وأصحابِ مَدْينَ، والمؤتَفِكات – مراعاةً للتَّرتيب الزَّمنيِّ في تعاقُبهم إثْرَ بعضِهم إلا أصحاب مَدْين فقُدِّمت على قوم لوط وهُم بَعدَهم في الزَّمان؛ لأنَّ هذا في شأن مَنْ وُصفوا بأنَّهم لم يجدوا ما يحميهم ممَّا هم فيه من العذاب. وممَّا يُذكر في سرِّ التَّرتيبِ أنَّه بدأ بقوم نوح، لطول أعمارهم وامتداد آثارهم، وثَنَّى بقوم عادٍ لقوَّة أبدانهم وعظيم شأنهم في بُنيانهم ومصانعهم، وذَكَر بعد ذلك ثمود لتمكُّنهم من نحت الجبال، وقوم إبراهيم في مُلك جميع

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/261.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/540، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/576.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/135.

الأرض، وأصحاب مدين في جمع الأموال ومدِّ الآمال ونقص الميزان والمكيال، والمؤتفكات في إعراضهم عن صيانة أعراضهم؛ فالمُلاحَظ أنّ التَّرتيب رُوعي فيه ما تميزَّ به كلُّ قومٍ عن غيرهم[1].

سرّ تخصيص هؤلاء الأقوام بالذِّكْر:

أخبار القوم معروفة؛ لقُرب ديارهم، وتواتر آثارهم

خصَّ القرآن ﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ﴾ بالذِّكر، لمعرفة العرب بأخبارهم وأحوالهم وقُرب ديارهم منهم. فضلًا عن عجيب شأنهم، وتنوُّع أخبارهم، وغرابة الأحداث الَّتي عاشوها، وصلاحيتها لِلعظة، والعبرة.

نكتةُ فصلِ قولِه: ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾:

مهامُّ الرُّسل الإتيانُ بدلائلِ الصِّدقِ والحقّ

جاءتْ جملةُ ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ اسْتئنافًا بيانيًّا نشأَ عن قولِه تعالى: ﴿نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، أي: أَتَتْهم رُسُلُهم بدلائلِ الصِّدقِ والحقّ، ويمكنُ أنْ تكونَ جملةُ ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ تعليلًا لِما تقدَّمها في الآية[2].

سِرُّ التَّعبير بالإتيان: ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾:

منهجُ الرُّسل مناسب للفطرة، والإتيان بالمعجزات دعمٌ للرّسالات

جاء التَّعبير بالإتيان في قوله تعالى: ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ للدّلالة على سهولة منهج الرُّسل في حدِّ ذاته، فضلًا عن سهولة الإتيان بالمعجزات الَّتي طلبوها وهي خارقة للعادة، كما طلب قوم ثمود من صالحٍ النَّاقةَ وأجابهم إلى ذلك.

إيثار لفظ (الرُّسل) دون (الأنبياء):

رسلُ الله ذوو مقامات عالية، وهم جاؤوا بمبادئ سامية

جاء التَّعبير القرآنيُّ بلفظ الرّسل دون الأنبياء في قوله تعالى: ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾؛ للدّلالة على عُلوّ شأن الرُّسل ورفعة مكانتهم فيما أمَروا به قومهم من التَّشريعات الإلهيَّة الَّتي كَذَّبوا بها، بل وآذوا الرُّسل ورفضوا دعوتهم؛ بخلاف لفظ الأنبياء فلا يتأتَّى معه التَّشريعات الإلهيَّة، بل يدعون إلى شريعة مَنْ كان قبلهم.

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/356 - 357.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/261.

فائدةُ إضافةِ (الرُّسُل)، إلى ضميرِ (هم): ﴿رُسُلُهُم﴾:

أُسندَتْ كلمةُ (الرُّسُل) إلى الضَّمير (هم) لإثباتِ إرسالِ رسولٍ إلى كلِّ أُمَّةٍ من الأُمَم، مِصداقُ قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النَّحل: 36][1]. وفيه إشارة إلى مزيد العناية بهم من حيث إنّ الرُّسل جاءت إليهم خاصَّة وخاطبتْهُم بما يهديهم إلى الحقّ.

ما مِنْ أُمَّةٍ إلّا خَلا فيها نذير، وجاءها بالهداية بشير

معنَى (الباء) في: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾:

الباءُ في ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ للمُصاحَبة، أي: أَتَتْهُم رُسُلهم مُتلبِّسينَ بالبيِّنات، أي: مُصاحبينَ لها، حيث إنَّ البيِّناتِ هي الحُجَجُ الواضحاتُ والمعجزاتُ الباهراتُ المؤيِّداتُ للرُّسُلِ في صِدْقِ دعواهُمُ الرِّسالة[2].

مجيء الرّسل قرينٌ بالبيّنات الظّاهرة، والمعجزات الباهرة

سِرُّ التَّعبير بلفظ (البيِّنات):

آثر التَّعبير بالبيِّنات دون المعجزات؛ لأنَّ المراد هنا المعجزات الواضحات جدًا بسبب أنهم ارتكبوا من القبائح ما أوجب دمارهم، ولأنَّ بعض المعجزات قد تكون خفيَّة على بعض النَّاس، والمقام هنا مقام إظهار وإعلان فناسبَهُ التّعبير بالبيِّنات.

اقتضى مقام الإظهار التَّعبير بالبيِّنات

دلالة (الفاء) في سياق نفي الظّلم ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾:

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ للتَّفريع، أي: تفريعُ جملتِها على جملةِ ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾[3]. ويجوز أن تكون الفاء للعطف على مُقدَّرٍ ينسحب عليه الكلام، ويستدعيه النِّظام. تقديره: (فكذَّبوهم فأهلكهم الله تعالى) ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾[4].

احتمال الفاء للتَّفريع أو العطف، دليل على تنوّع المعنى

دَلالةُ الجملة - بعد الفاء - في سياق الآية الكريمة:

قولِه: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾، لَمّا كانتِ الفاءُ للتَّفريع، جاءتِ

ظلمُ الأقوامِ لأنفسِهم بالكفرِ وتكذيبِ الرُّسُل، سِمةٌ منهم وطيشٌ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/541.
(2) سامي القدّوميّ، التَّفسير البيانيّ، ص: 89.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/261 - 262.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/135.

الجُملةُ بعدَها تفريعًا على جُملةِ ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾، والمفرَّعُ هو مجموعُ الجُملةِ إلى قولِه: ﴿يَظْلِمُونَ﴾؛ لأنَّ الَّذي تفرَّعَ على إتْيان الرُّسُل: أنَّهم ظلموا أنفُسَهم بالعنادِ والمكابرة، والتَّكذيبِ للرُّسُل، وصَمِّ الآذانِ عنِ الحقّ، فأخذهمُ اللّهُ بذلك[1].

نكتةُ تقديمِ النَّفيِ على المُسنَدِ إليه، والمُسنَد الفعليّ:

تقدَّم النَّفيُ على المُسنَدِ إليه والمُسنَدِ الفعليِّ في قولِه: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾؛ لتأكيدِ نفيِ الظُّلمِ عنِ اللّهِ تعالى بأبلغِ وَجْه، وتحقيق نَفيِ هذا الظُّلمِ في أيِّ وجهٍ من الوجوهِ الَّتي يمكن أنْ تخطُرَ على الذِّهن[2].

تأكيدُ نَفْيِ الظُّلمِ عنِ اللهِ تعالى، بأبلغِ وجه، وأوفى عبارة

فائدةُ دخولِ فعلِ الكَوْنِ، على لفظِ الجلالةِ في نَفْيِ الظُّلم:

جاءَ نظمُ الكلامِ في قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ على هذا الأسلوبِ البديعِ؛ للمبالغةِ في تنزيهِ اللّهِ تعالى عن الظُّلم، أي: ما صَحَّ وما اسْتقامَ له تعالى أنْ يظلمَهم ولكن ظلموا أَنفُسَهم[3]، وهذه المبالغة دلَّل عليها الإتيان بفعل (كان) الَّذي يدلُّ على استمرار نفي الظُّلم؛ فليس من شأن اللّه تعالى أن يظلمهم.

المبالغةُ في نَفْيِ ظُلمِ اللهِ لهم، لأنّه منزّه، ولا يظلم أحدا

فائدةُ دخولِ لامِ الجُحودِ، بعد فعلِ الكَوْنِ المنفيّ:

اقترن النَّفيُ في قولِه تعالى: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ بما النَّافية ثمَّ بلامِ الجُحودِ في قولِه: ﴿لِيَظْلِمَهُمْ﴾، وهذا يُعدُّ أبلغَ وَجْهٍ من وجوهِ نَفْيِ الظُّلمِ عنِ اللّهِ تعالى نفيًا تامًّا قاطعًا[4].

نَفْيُ الظُّلم عن اللهِ تعالى نفيًا قاطعًا، أمر معلوم محتوم

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ المنفيِّ، في السّياق:

صيغَ الظُّلمُ بصيغةِ المضارعِ في قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ

الاستمرارُ في نفي ظُلمِ اللهِ لهم، إذ يستحيل في حقّه الظّلم

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/261.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/262.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/576.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/262.

﴿لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّجدُّدِ والتَّكَرُّر، أي: اسْتمرارِ عدمِ ظُلمِ اللّهِ لهم، ودوام تنزُّهه[1].

دلالة الواو في قوله: ﴿وَلَٰكِن﴾:

(الواو) في قولِه: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ عطفَتْ جُملةَ الاسْتدراك على ما تقدَّمَها وأفادتْ تحقُّقَ ما بعدَ الاسْتدراكِ على ما قبلَه[2].

مـــا بـعـد الاســـتـــدراك مُحقّقٌ على ما قبله

بلاغةُ القَصْرِ، في ثنايا سيّاق الآية الكريمة:

في قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ جاءَ القَصْرُ في ذَيْلِ الآيةِ مُبتدئًا بقولِه: ﴿فَمَا كَانَ﴾ ومنتهيًا بقولِه: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ لقَصْرِ المظلوميَّة التّامَّةِ الكاملةِ عليهم، كما في قولِه تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٣٣﴾ [النّحل: 33]، وآياتٌ كثيرةٌ غيرَها نَزَّه اللّهُ نَفْسَه فيها عنِ الظُّلمِ وقصَرَ الظُّلمَ على تلكَ الأممِ المكذِّبة لِرُسُلِه[3].

قصرُ الظُّلمِ على الأقـــوامِ الَّـتـي كذبتْ رُسُلَ الله

دلالة الاستدراك بـ ﴿وَلَٰكِن﴾:

جاءَ الاسْتدراكُ بـ ﴿وَلَٰكِن﴾ ليُسجِّل بيان اللّهِ فَرْطَ ظُلمِهم لأنْفُسِهم، وذلك بسوءِ صنيعِهم من كِبْرِهم وعنادِهم حتَّى جُعِلَ ذلكَ كلُّه هو المفرَّعُ عليهم والمُتلَبِّسُ بهم في صورةِ الاسْتدراك[4].

تـــسـجـيـلُ فَـرْطِ ظُـلمِهم لأنْفُسِهم

فائدةُ دخولِ فعلِ الكَوْنِ الماضي في جملة الفاصلة:

في قوله تعالى: ﴿كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ أثبتَ بيانُ اللّهِ ظُلْمَهم أنفُسَهم بأبلغِ وجهٍ؛ إذْ أُسْنِدَ إليهم بصيغةِ الكَوْنِ الماضي الدّالِّ على تمكُّنِ الظُّلمِ منهم وتحقُّقِه فيهم منذُ زمانٍ مضَى[5].

تـمـكُّـنُ الـظُّـلـمِ منهم منذُ أمد مديد

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/476.
(2) الدَّرويش، إعراب القرآن: 4/133.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/576.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/262.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/262.

نكتةُ تقديمِ المفعولِ ﴿أَنفُسَهُمْ﴾:

اخـتُـصَّـت أنفُسهم بالظُّلم حدّ التلبُّس

قُدِّمَ المفعولُ ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، وحقُّهُ التَّأخيرُ للاهْتمامِ به، ولبيانِ اخْتصاصِ أَنْفُسِهم بالظُّلم، لا غيرَ أنفسهم وتلَبُّسِ الظُّلمِ بأَنْفُسِهم مع مراعاةِ الفاصلةِ في الآيةِ القرآنيَّة[1]، ولبيان شناعة ما يفعلونه بأنفسهم وهو ما استحقوا به العقاب، فوبالُ ظلمِهم راجعٌ إليهم.

سرّ الجمعِ بينَ صيغتي الماضي والمضارعِ، في الآية:

إفـادة اسْـتـمـرارِ ظُلمِهم وتمكُّنِه منهم

جمعَ القرآن الكريم بين صيغتي الماضي والمضارعِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ للدَّلالةِ على اسْتمرارِ ظُلمِهم من الزَّمانِ الماضي إلى حاضرِهم؛ إذ لم يزالوا يُعرِّضونها للعقابِ بالكُفرِ والتَّكذيب[2].

توجيه التَّذييل بجملة الفاصلة:

نـفـيُ ظـلـمـهـم، يستلزم تسبيب مـا حـلَّ بـهـم بأيديهم

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ "تذييلٌ مُقرِّرٌ لمعنى الكلام قبله؛ لأنَّ نَفْيَ ظلمهم عن الله يقتضي أنَّهم هم الذين استوجبوا بكفرهم ما حلّ بهم من كوارث"[3].

بلاغة المجاز في تسميّة العقاب ظلمًا:

عـقـابـهـم كـان سـبـبُـه ظـلـم أنفسهم، وذلك أسوأ الظّلم

"وفي تسمية العقاب ظلمًا مجاز مرسل باستعمال السّبب في المسبَّب؛ لأنَّ عقابهم كان سببه ظلم أنفسهم بكفرهم وتكذيبهم رسل الله إليهم"[4].

بيانُ المتشابه اللَّفظيِّ بين آيتي: التوبة وإبراهيم:

تشابهت هذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/576.
(2) المطعنيّ، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/22.
(3) أبو السُّعود إرشاد العقل السّليم: 2/576، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/262.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/576، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/262.

التَّعبير بالغيبة أمـارة الإعـراض عـنـهـم بـمـا أعـرضـوا عـن الهدى

رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [التَّوبة: 70]، مع قوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ [إبراهيم: 9]. فالنَّاظر في الآيتين يجد بينهما تشابهًا في الأسلوب واختلافًا في بعضه، وذلك أنَّ آية سورة التَّوبة جاءت بأسلوب الغيبة في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ﴾﴿أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم﴾ في حين موضع سورة إبراهيم جاء بالخطاب ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ﴾، بالمجيء بدلًا من الإتيان في قوله تعالى: ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم﴾، ولعلَّ السَّبب في ذلك يظهر من السِّياق؛ فسياق سورة التَّوبة عُدِل فيه عن الخطاب إلى الغيبة، بسبب ما فعلوه من الصِّفات الذَّميمة والأفعال القبيحة، فأدَّى ذلك إلى الإعراض عنهم فناسَبَه التَّعبير بالغيبة في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ﴾.أمَّا موضع سورة إبراهيم فيسبقه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ٨﴾ [إبراهيم: 8] فهو مبنيٌّ على الخطاب من موسى عليه السلام لقومه، فناسب التَّعبير بالخطاب بعده لقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ﴾.

وأمَّا عن سرِّ التَّعبير بالإتيان في قوله تعالى: ﴿أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم﴾ في التَّوبة والمجيء في سورة إبراهيم بقوله تعالى: ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم﴾ أنَّ السِّياق في سورة إبراهيم أعمُّ منه في سورة التَّوبة؛ لذلك ناسبه التَّعبير بالمجيء الَّذي هو أعمُّ من الإتيان.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 17 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-14-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 17 : المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-14-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4716310 بتاريخ 2024/01/24م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»